دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز إبان القرن الحادي عشر
من خلال نماذج من الرحلات الحجية المغربية

محمد مزيان
أستاذ مساعد
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

تحاول هذه الدراسة تتبع البنيات الاجتماعية والاقتصادية وتطورها في بلاد الحجاز خلال القرن السابع عشر ميلادي الموافق للحادي عشر هجري من خلال رصد ما جاء في متون الرحلات الحجية المغربية إلى هذه المناطق. على اعتبار أن الرحلات الحجية أوفر عددًا نظرًا لاستمرار الصلة بين جهات العالم وهذه البقاع التي يأتيها الناس من كل فج عميق، فرغم أن الصيغة الدينية هي الطاغية على مضامينها إلا أنها احتوت على معلومات ومعطيات في غاية الأهمية تساعد في دراسة جوانب ظلت مغيبة من تاريخ المنطقة. لهذا سنركز على تحليل هذه البنية خلال الحادي عشر هجري – القرن السابع عشر الميلادي من خلال الرحلات الحجازية التالية: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)، لأبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي. المعارج المرقية في الرحلة المشرقية لمحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني الذي حج عام (١٠٩٦هـ). نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس في سنة (١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م) للقادري.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٩	فبراير	٢٠٢٥
تاريخ قبـول النشـر:	٠٨	أبريل	٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

البنية الاقتصادية الاجتماعية؛ الحجاز؛ الرحلات الحجية؛ التاريخ الاقتصادي؛ التاريخ الحديث والمعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2025.362105.1210

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد مزيان. "البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز إبان القرن الحادي عشر من خلال نماذج من الرحلات الحجية المغربية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٤٨ – ٥٩.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mohammed.meziane@uit.ac.ma
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تحاول هذه الدراسة تتبع البنيات الاجتماعية والاقتصادية وتطورها في بلاد الحجاز خلال القرن السابع عشر ميلادي الموافق للحادي عشر هجري من خلال رصد ما جاء في متون الرحلات الحجية إلى هذه المناطق. على اعتبار أن الرحلات الحجية أوفر عددًا نظرًا لاستمرار الصلة بين جهات العالم وهذه البقاع التي يأتيها الناس من كل فج عميق، فرغم أن الصيغة الدينية هي الطاغية على مضامينها إلا أنها احتوت على معلومات ومعطيات في غاية الأهمية تساعد في دراسة جوانب ظلت مغيبة من تاريخ المنطقة.

لهذا سنركز على تحليل هذه البنية خلال الحادي عشر هجري - القرن السابع عشر من خلال الرحلات الحجازية التالية: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)، لأبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي[١]. المعارج المرقية في الرحلة المشرقية لمحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني الذي حج عام ١٠٩٦هـ[٢]؛ نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس في سنة (١١٠٠/ ١٦٨٨م) للقادري[٣].

نلاحظ من خلال هذه العناوين تنوع الأغراض وتعدد الموضوعات مما يعكس رواسب ثقافية وذهنية ثاوية في فكر هؤلاء الرحالون، وعليه سنعتمد عليهم في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الحجاز خلال القرن الحادي عشر، متسلحين بالمنهج التحليلي والمنهج المقارن للوقوف على ما جادت به هذه المتون من معلومات تحتاج إلى التدقيق والنقد والتحليل، في محاولة منا للإجابة على الإشكاليتين المركزية للدراسة وهي: ما معالم الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للحجاز خلال القرن الحادي عشر/ السابع عشر؟ إلى أي حد تساهم هذه الرحلات في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة؟

تستمد هذه الإشكالات مشروعيتها من كون نصوص الرحلات الحجية بشكل عام لم تول كبير العناية والاهتمام بالجوانب السالفة الذكر ما دام أن الغرض الرئيس من الرحلة وغايتها الفضلى هي حج بيت الحرام، وزيارة الأماكن المقدسة وارتياد آفاق العلم والأخذ عن علماء مكة والمدينة المنورة. بالمقابل نجد كذلك أن المصادر العربية التقليدية قد أغفلت التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات في المجتمعات الإسلامية. فالمؤرخون القدامى عزفوا في الغالب الأعم عن هذه المواضيع، وأبعدوا هذه المجالات البحثية من دائرة اهتماماتهم رغم أهميتها في تفسير التاريخ، ومن ثم عملوا على تهميش مخزون الذاكرة الجماعية للشعوب، وإن كانت بعض الاستثناءات تشكل- على قلتها- تجارب مهمة نبشت في هذا الحقل، وأفرزت مجموعة من النصوص والنظريات التي تشكل معالم مضيئة في التراث العربي والإسلامي.

وإذا كان هذا التهميش والإقصاء من جانب المؤرخين القدامى يشكل مطبة حقيقية تجعل مهمة الباحث في استقصاء الحياة اليومية والعادات والتقاليد والاقتصاد في المجتمعات الإسلامية بما فيها مجتمع الحجاز مدار هذا البحث مهمة تشوبها العديد من الصعوبات، بسبب ندرة النصوص والمرويات التاريخية، فإن كتب الرحلات تعمل على لثم هذه الثغرة التي تركتها الحوليات التاريخية[٤].

وعليه، سنحاول التقاط الإشارات التي جادت بها هذه الرحلات علها تسعفنا في رسم صورة عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة الحجاز خلال القرن (السابع عشر/ القرن الحادي عشر)، وحتى تكتمل عناصر الصورة ينبغي الانفتاح على بعض المؤلفات التي تناولت تاريخ المنطقة إما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر لتساعدنا في القيام بالتحليل أو المقارنة أو التحقق من معلومة جاءت هنا أوهناك.

أولاً: نماذج من الرحلات الحجية المغربية خلال القرن (الحادي عشر/ السابع عشر)

من الثابت تاريخيًا أن بلاد الحجاز من أقدم المناطق تعميرا واستقرارا، وهوما انعكس على عمقها التاريخي، فهذه الأرض المباركة التي يأتيها الناس من كل فج عميق أصبحت محط أنظار المسلمين تهفو إليها قلوبهم وتخشع لها نفوسهم، لهذا نظمت إليها الرحلات الحجية، وهوما

خلف لنا نصوصا تاريخية تؤرخ لمسار الرحلة ولمختلف المشاهد والمعاينات التي عاينها الرحالون. ومن تمت جاءت كتاباتهم حافلة بالكثير من المعطيات التي تهم عالم السياسة والمؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع، فأهميتها تتجلى فيما تحويه من مادة علمية عن تلك المناطق، وغالبًا ما تكتب بأسلوب أدبي منسق، يطغى عليه الجانب الفقهي وأحيانا أخرى بأسلوب علمي تقريري وصفي، ولكنها في كلتا الحالتين لا تخلو من اعتمادها على السماع ومشاهدة وملاحظة الظواهر ليتم تدوينها، إما في حينه أو عند الرجوع إلى أرض الوطن. ومن المعلوم أن الرحلات تعد من مصادر كتابة التاريخ؛ لأنها تعتمد على الإدراك المباشر للأحداث، وليس على النقل والسماع فقط، مما يجعل منها شهادة حية لوقائع وظواهر مُعاشة في فترة زمنية محددة. لهذا تعتبر كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاثنوغرافية التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الباب.

ونتفق مع سعيد بن سعيد العلوي حين القول: "إن الرحلة تنبئ عن صاحبها أكثر مما تخبر عن موضوع المشاهدة. ذلك أن الرحالة إذ يجتهد في تصوير البلاد والمناظر التي يرتحل إليها ويطلب تحقق الامتاع والمؤانسة بما ينقله إلى قارئه من غرائب وعجائب، فإن ذلك كله لا ينفك من الحديث عن الذات تصريحًا أو تضمينًا ولا يملك أن يخرج عن الإهاب الحضاري الذي يصدر عنه ولا يبتعد عن الثقافة التي ينتمي إليها."[٥] وبذلك كانت الذات هي محور الرحلة وهي منطلق المقارنة والمعاينة لذلك نجد ضعف حضور الآخر بمستوياته المختلفة.

مهما تنوعت الرحلات وتعددت أغراضها تظل الرحلة الحجازية مختلفة تماما عن سواها، فرغم تناولها لجوانب مهمة من تاريخ بلاد الحجاز، وهي جوانب لم تحظ بتغطية وافية من طرف المصادر الأخرى، حتى وإن كانت الرحلة الحجازية دينية بالأساس، لأداء فريضة الحج، فإنها كانت كذلك علمية، لاستكمال التحصيل العلمي والحصول على الإجازات. ورغم التباين الكبير فيما بين كتب الرحلات إلى الحجاز؛ إلا أن الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها، فتتطابق الرحلات في مستوى الرحلة الزمانية أو المكانية، وتندمج الذات في صياغة المرئي. كما تداخلت في صياغة هذه النصوص جوانب متعددة منها: السيكولوجي والوجداني والروحي، لهذا جاءت هذه النصوص زاخرة بالوصف والسرد لكل مراحل السفر.

فلا تقتصر الرحلات على فعل الارتحال ماديا، بل إن السفر يعاد إنتاجه على مستوى الكتابة. السفر ارتحال من خلال النص الذي يصبح رحلة جديدة تضيء الرحلة الفعلية السابقة. وبفضل السفر، في الكتابة، يصبح بإمكاننا أن نتحدث عن خصائص نوعية ميزت الرحلة عن غيرها مثل طغيان الوصف النابع من رحم السرد، إن لم يكن خادما له، فضلا عن خصائص جمالية متعددة أنتجت السارد الجوال، السفر، أخيرًا، ينتج لنا، عن طريق الرحلة، ما يمكن تسميته بالصورة السردية، أو الفعل الوصفي السردي، استنادًا إلى أن المكان، أي مكان، لا يخضع للثبات، بل يحمل، في صلبه حركيته الزمنية المرئية وغير المرئية، مما يفتح حوارًا -على مستوى تفاعل الأمكنة- خصبا بـ"الهنا" و"الهناك". الرحلة أخيرًا، وليس آخرًا، حكاية سفر، تعكس تجربة ذاتية غنية[٦].

بخصوص السياق العام للرحلات موضوع البحث في هذه الدراسة، فهي تتأطر زمانيًا بنهاية الدولة السعديين وظهور الدولة العلوية وعملها على توحيد مناطق المغرب تحت لوائها مما فرض عليها الدخول في علاقات متقلبة مع الامبراطورية العثمانية من خلال مناوشات أتراك الجزائر للدولة المغربية على مستوى الحدود انتهت بتوقيع اتفاقية جعل وادي تافنا حدًا فاصلاً بين المغرب والايالة العثمانية[٧]. أما فيما يخص بلاد الحجاز فقد كانت إداريا خاضعة للإمبراطورية العثمانية التي حافظت على الأوضاع السائدة في الحرمين الشريفين، ولا سيَّما الوضع الثقافي والاجتماعي والإداري، وكان التقسيم الإداري في أوائل الحكم العثماني للحجاز يختلف عن آخره؛ فمع تسمية الوالي – الذي يتمُّ تعيينه من استانبول – في البداية بأمير الأمراء، وتسمية أمير المدينة المنوَّرة – الذي يُعيَّن من استانبول – بشيخ الحرم، وتسمية أمير مكة المكرمة – الذي يُختَار من الأشراف – بشريف مكة، إلا أنه تغيَّر اسم بعض تلك الوظائف في العهد الأخير، حيث أصبح يُطلَق على الأول والي

الحجاز، وعلى الثاني محافظ المدينة المنوَّرة، واحتفظ الباقي بالتسمية نفسها، وكانت ولاية الحجاز تتكوَّن من ثلاث سناجق: مكة المكرمة وهى مركز الولاية، والمدينة المنوَّرة وجدة، في الوقت الذي كانت جدة تشكِّل مع الحبشة إمارة في بدايات عهدها، وكان والي جدة نفسه شيخًا للحرم المدني، ولا سيَّما إذا حاز رتبة الوزارة[٨].

قبل الغوص في تحليل ما جادت به هذه الرحلات الحجية من معلومات حول الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز، يجدر بنا أن نقدم تعريفًا مختصرًا لهذه الرحلات - التي سنعتمدها في هذه الدراسة- وللظروف التي أحاطت بها. مع الإشارة إلى أنه الحديث لن ينصب على رحلة في غاية الأهمية خلال الفترة المعنية بالدراسة هي رحلة العياشي الموسومة "بماء الموائد"، حتى لا يتم اجترار ما قيل حولها من قبل.

١/١-رحلة ابن أبي محلي: ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي محلي الفيلالي العباسي المتوفي سنة (١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م) في أعقاب تمرده على الأمير المولى يزيد ابن السلطان أحمد المنصور الذهبي. له رحلة تحمل ثلاث عناوين: الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت" أو عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج" أو "الرسالة"[٩] وقد حقق الأستاذ عبد المجيد القدروي هذه الرحلة وعلق عليها في كتاب بعنوان "ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت"[١٠]. والرحلة عبارة عن فهرسة عرض في بابها الأول شيوخه في التصوف، بينما ذكر في الباب الثاني أساتذته في العلوم بالمغرب ومصر وكذا بالحجاز، مضيفًا إلى ذلك رأيه عن طريقة تدريس بعض الشيوخ ونصوص مراسلاتهم له مع نص إجازة له من شيخه أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي... ثم تناول في الباب الثالث ارتساماته عن رحيله إلى مصر والحجاز وما دار خلالهما من مناقشات في موضوع نظرة الاسلام إلى تناول عشبة "التبغ"[١١].

٢/١-رحلة أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي. الشهير بالسراج والملقب بـ (ابن المليح)

دوّن رحلته تحت عنوان: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)[١٢]، رحلة لها طعم خاص بما احتوته من معلومات مهمة عن تعلق المغاربة بالحرمين الشريفين وبمدى سعيهم من أجل الحصول على رضى تلك البقاع ومن تحتضنهم ... وقد تمت أيام السلطان الوليد بن زيدان بن المنصور أحمد الذهبي[١٣] ... الوليد الذي بعث بهدية فريدة للحرمين بواسطة القائد جوهر... تتحدث الرحلة عن ميقات أهل مصر والمغرب: رابغ قبيل محطة الجحفة التي يحرم منها الحجاج.... يخبرنا ابن المليح أنه دخل مكة (ذو الحجة ١٠٤٢/ يونيو ١٦٣٣) من موقع كداء الثنية التي بأعلاها، والأصوات تصافح المسامع بالتلبية لقد قطعوا رُبا مكة ربوة ربوة... وتبدت لنا يقول ابن المليح الكعبة الغراء في أستارها، وتجلت لنا المليحة بأنوارها[١٤]. تكمن أهمية هذه الرحلة في اعتماد صاحبها على مجموعة من المصادر المكتوبة، على غرار أغلب الرحلات التي اعتمدت إلى جانب الملاحظة المباشرة والرواية الشفوية على مصادر لفقهاء أو مؤرخين أو رحالون، وهكذا نجد ابن المليح ذكر عددا لا يستهان به من الكتب منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الحكم، لأبي العباس أحمد بن عطاء الله؛
- خلاصة الوفا، لنور الدين السمهودي؛
- دلائل الخيرات، للإمام الجزولي؛
- المدونة، للإمام سحنون.

وقد كان خروج الركب الذي يضم ابن المليح من مصر في ٢٧ شوال (١٠٤١ه/ ١٦٣١)، فمروا على عجرود وعقبة آيلة وقصبتها حيث تلتقي الركبان القادمة من الشام، ثم بعد ذلك قصبة المويلح ثم قصبة الوجه ثم ينبع ثم رابغ، ثم دخل مكة يوم ٧ ذي الحجة آنئذ قال: "فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام بالإجلال والإعظام واصطفاه، وجعل حماه مباحا رحبا لمن حول

حماه، وحرما آمنا لمن دخل غليه ووفى ما عليه حين وافاه هذا كله والتلبية تتجدد عند كل صعود وهبوط"[١٥] بعد ذلك توجهوا إلى المدينة يوم الجمعة ٣ محرم (١٠٤٢هـ/ ١٦٣١م) وأثناء مقامه بالحجاز وصف الأحوال السياسية لهذه البلاد.

٣/١-نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس

حج أبو العباس سيدي أحمد بن محمد «فتحا» بن عبد الله معن الأندلسي سنة ١١٠٠هـ، ورافقه في حجته تلميذه أبو العباس القادري فألف رحلة سماها: نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس تمتاز بأسلوب جميل حي يجعلها من أبدع الرحلات التي ألفت في المغرب. وقد سافر سيدي أحمد بن عبد الله في جماعة كبيرة من أصحابه مع الركب المغربي[١٦] على طريق البر، وقد ذكر القادري كل المراحل من فاس إلى مكة، لكن باختصار لا يخلو مع ذلك من فائدة عن أحوال طريق الحج في أوائل القرن الثاني عشر.

وخلال هذه الرحلة يتتبع القادري تسجيل المراحل التي يقطعها الشيخ ابن معن، والوفد الكبير المرافق له، ويصف نشاطه في الطريق، وأثناء تأدية مناسك الحج. ويتحدث عمن لقيه من الرجال أو من تبرك به من الرجال علماء أو صلحاء، أحياء وأمواتًا. ولما كانت الرحلة من إنتاج أديب سبق له ممارسة الأدب، فقد اهتم القادري بهذا الجانب في كتابة الرحلة، فَجَوّد أسلوبها وحسّن صياغتها. وأضاف إليها من النصوص الأدبية والشعرية المناسبة التي أنتجها خلال المواقف التي واجهها، أو من النصوص الأدبية التي عرضت له. فكانت بذلك نصا أدبيًا جيدًا يرسم أسلوب الكتابة الفنية عند أحمد القادري، ويحدد مستواه الأدبي فيها.[١٧]

٤/١-المعارج المرقية في الرحلة المشرقية[١٨]

لمحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني الذي حج عام١٠٩٦هـ؛[١٩] فهو من أعلام حاضرة تطوان قال عنه صاحب تاريخ تطوان بأن الرافعي الأندلسي عاش في القرن الحادي عشر وتأخرت وفاته إلى القرن الثاني عشر، لم يكن مشهورا رغم انتاجه العلمي الغزير الذي تنوع بين الرحلة والنظم، والرسائل، والأدعية، والأوراد.

ذكر في رحلته الحجازية، والموجودة بخزانة محمد داوود، أنه ابتدأ رحلته مع رفقائه من بلده تطاوين عقب صلاة الجمعة من يوم ثامن جمادى الأولى عام ستة وتسعين وألف هجرية وأنهم لبثوا ستة أيام كاملة في (حلق الوادي) وادي مرتيل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم منَ الله عليهم بريح طيبة فركبوا سفينة شراعية سارت باسم الله مجراها ومرساها. كما وصف الرفاعي الصعوبات التي واجهت ركب الحجيج المغربي سواء في البحر أو البر وما اجتازوه من صعوبات حتى وصلوا إلى مكة التي وصفها ووصف ما تضمه من معاهد وأماكن وآثار، وأثبت نصوص الدعوات التي تقال في مختلف المناسبات والمواقف وكل ذلك بشعور فياض وعواطف متأججة[٢٠]. كما أعلن عن دوافعه الدينية ورغبته في الحج بشوقه لزيارة المقام الشريف إذا قال:" لما أصابني من الشغف وخامرني من الوجد والكلف، صاحب خير الأنام طه، وأعظم الخلق قدرا وجاها، والتلذذ بفروع من رق وعلا."[٢١]

ثانيًا: ملامح من الحالة الاجتماعية لبلاد الحجاز

نسجل من خلال الاطلاع على الرحلات الحجازية خلال الفترة المعنية بالدراسة، ضعف الإشارات إلى البنية الاجتماعية لمنطقة الحجاز، وطغيان السردية وهاجس التوثيق، لهذا جاء الحديث عن هذا الموضوع عرضيا، أو جاء وردت المعلومة في سياق يجمع بين الجانب الاقتصادي والاجتماعي لمحات عن الجانب السياسي، فما دام الهدف من الرحلة ومن تدوينها كما أسلفنا هو الحديث عن تجربة الحج وعن أهوال السفر، وبالتالي طفحت نصوص هذه الرحلات بالجانب الروحي والوجداني، لهذا وحتى تتضح عناصر الصورة كان لابد من الرجوع إلى بعض الدراسات التي تناولت عن تاريخ المنطقة خلال المدروسة.

وعلى كل حال فقد أكدت هذه الرحلات على تنوع العناصر السكانية للحجاز إذا كانت التركيبة البشرية تتكون من العناصر التالية:

-الأشراف[٢٢]: أمراء البلد وهم من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما والملقبون ببني قتادة أو بني أبي

نمة. وخلال العهد العثماني فإن هذه الطبقة قد قامت بتدعيم مكانتها الدينية ومركزها الاجتماعي والسياسي، في الحاضرة والبادية على الرغم من اعتبارهم موظفين عثمانيين يعينون بأمر من الباب العالي، فقد كان أمراء مكة والمدينة على عكس الولاة العثمانيين في الحجاز يتصرفون دون الرجوع إلى الباب العالي أو الحصول على رضاه. زيادة على ذلك فقد كانوا يتحصلون على جزء من مداخيل ميناء جدة فيما النصف الباقي يكون من نصيب الباب العالي. كما كانوا مميزين على مستوى المظهر العام والحظوة والمكانة داخل المجتمع وحتى في أعين وفود الحجاج.

- القرشيون: هم قلة بقيت من سلالة القرشيين الأوائل، وإن كانت غالبيتهم نزحت إلى البلدان المجاورة إثر موجات الفتح الإسلامي وجزء منهم استوطن الطائف، نواحي مكة المكرمة وجدة، ومنهم من غادر الحجاز عقب الثورات العلويين.[٢٣]

الأغوات[٢٤]: وهم عبيد من الأجناس المختلفة، أوقفوا على المسجدين المكي والمدني بقصد الاعتناء بهما، ولم يكن لهم تأثير اجتماعي، كانت مهمتهم تتحدد أيضًا في ضبط الأمن والحفاظ على النظام داخل الحرم المكي والمسجد النبوي. وسيصبح لهم تأثير سياسي حسب ما ذهبت إليه إحدى الباحثات.

المجاورون: تشير كتب الرحلات الحجية إلى وجود جاليات مجاورة في مكة المكرمة منهم المغاربة والهنود والجزائريون والتونسيون والطرابلسيون والمصريون والسودانيون واليمانيون والحضارمة والسنود، والأعاجم، والبصريون، والاحسائيون.

وقد أشار القادري إلى وجود جاليات مجاورة في مكة المكرمة منهم المغاربة والهنود والمصريون والأعاجم والبصريون والأحسائيون[٢٥] أخبرنا أيضًا ابن المليح أن السيد عبد العزيز بن محمد الكبير، نجل سيدي أبي عمرو قد أقام بالحرمين مجاورًا[٢٦]. وقال صاحب الاصليت الخريت عن وجود شيخ هندي مجاور في مكة[٢٧]. وقد استطاعت هذه الفئة الاندماج في التشكيلة الاجتماعية لمكة. كما تمكن هذا الخليط من خلق توليفة مجتمعية انصهرت في بوتقة المجتمع المكي خلال القرن السابع عشر واستمرت في التواجد إلى ما بعد ذلك إذ تؤكد الرحلات الحجازية في فترات لاحقة على هذا التعدد[٢٨].

كذا هناك فئة العبيد المشتغلين كجمالين، وتذكر الرحلات أن هؤلاء العبيد من أوطان متعددة، استقدموا إلى الحجاز لخدمة الأشراف أو الوجهاء أو أداء مهام معينة مرتبطة بموسم الحج.

نفس التركيبة البشرية المشار إليها أعلاه نجدها في المدينة المنورة مع التغيرات البسيطة فزيادة على الأشراف الذين كانوا يتمتعون بنفس مكانة وحظوة أشراف مكة المكرمة، نجد فئة الأنصار من ذرية الأوس والخزرج ثم المجاورن من جنسيات مختلفة وشكلوا نسبة مهمه من المجتمع المدني، ثم المجاورون الذين قال عنهم الرافعي أنهم قادمون من بلاد المغرب وفارس وفولان وسجلماسة والسند وتركيا والشام[٢٩]، كما يعطي القادري مثالا على ذلك بذكره لأبو العباس أحمد بن عمر الحسني السجلماسي المجاور بالمدينة المنورة"[٣٠]. وصف الرحالون أيضًا أخلاق أهل مكة، فالرافعي خصهم بالمديح فقال عن شخص أراد مساعدته على الطواف بالمسجد الحرام كان بوجهه سماح، وقد اعترف لأهل مكة بفضيلة المجاورة لذلك حكم لجميع أهل مكة المكرمة بحسن الخلق،[٣١] وقال ابن المليح القيسي: "وخرج أهل المدينة لملاقاتنا بالتعظيم والاجلال والترحيب والإقبال أبقاهم الله بأحسن شمائلهم... تخلقوا أبقاهم الله بأخلاقه (ﷺ) وتأدبوا من حسن آدابه (ﷺ)[٣٢]، كما وصف لحظة الوداع بالآتي: "خرج أهل المدينة مشيعين لنا كبارًا وصغارًا، باكين متحسرين على انفصالنا عنهم بعد الألفة لأيام قلائل، وخوفا علينا من غوائل الطريق"[٣٣] ويخلص إلى كرم أهل المدينة وحسن أخلاقهم وتأدبهم إذ يبرز بصيغة من المتعجب: "فما أحلى شمائلهم رضي الله عنهم وما أكرم على الله أخلاقهم"[٣٤]. وقال الرافعي: "قوم حسان وأخلاقهم مستحسنة"[٣٥]. زيادة على ذلك، كانت هذه التركيبة المجتمعية تزخر بالعلماء حيث أورد ابن أبي محلى في رحلته العديد من العلماء الذين التقى بهم في الحجاز ونهل من علمهم وأجازوه كما تحدث أيضًا عن أهل الحجاز وماهم عليه من قرب إلى الله تعالى وما يسود عباداتهم من الصفاء، وما هم عليه من حرص على أداء

التكاليف الشرعية أو تفريط فيها حسب رؤيته وحسب مذهبه، كما ناقش مسألة اختلاف المذاهب وأن المذهبين الحنفي والشافعي هما الأكثر انتشارًا عكس المذهب المالكي، حيث يصرح: "ولقد شاهدت بالحرم النبوي اليوم-شرفه الله- محرابين في مسجده (ﷺ) الذي كان يصلي فيه أيم حياته، قبل أن يزاد عليه في زمن عثمان -رضي الله عنه- ومن بعده، أما أحدهما فمحرابه عليه السلام، وهو الذي بإزاء قبره الرفيع، والآخر أحدثوه عن يمينه، ليصلي فيه الحنفي أو الشافعي، مناوبة دون المالكي والحنبلي، لقلة أتباع أحمد اليوم، أدلة أصحاف مالك من الغربة، لأن السلطان وجنده من الترك حنفيون، فكانت لهم السطوة والجاه. وعامة الحجاز كمصر شافعي "رضي الله عنهم جميعًا". فمن هنا تقوى المذهبان هنالك خصوصًا دون الآخرين"[٣٦].

بناءً على ما تقدم نلاحظ شبه إجماع هذه الروايات على وضع الملامح العامة لمجتمع الحجاز وإبراز التشابه والاختلاف بين الأعراب وأهل الحضر خاصة سكان المدينة المنورة ومكة المكرمة، إذ يبرز الاختلاف على مستوى السلوكيات والمعاملات، وهو ما يؤكد انعكاس المجال المقدس في نفسية وسلوك قاطنيه ذلك ما يستشف من قول ابن لمليح: "تخلقوا أبقاهم الله بأخلاقه (ﷺ) وتأدبوا من حسن آدابه (ﷺ)[٣٧]، كما يبرز الاختلاف في الأخلاقيات من منطقة إلى أخرى. حيث تتحدث الرحلات الحجازية عن قساوة الأعراب والبدو خارج مكة والمدينة، بل الأكثر منهم من امتهن قطع الطريق والسرقة.

وهو ما يبرز مستوى التحضر والترف إلى حد ما والاهتمام بالمظهر الذي بلغته ساكنة المدينة المنورة. بسبب الرواج التجاري الذي تعرفه المدينة وقت الحج، وبسبب انفتاحهم على ثقافات عابرة علاوة على وجود العنصر التركي في المدينة. ارتباطا بذلك اقتحمت النساء عالم التجارة فقد أورد جلبي أن نساء قرية صاجمان (وهي قرية في الطريق إلى مكة) يبعن فيها ما يملكن من فواكه، أو تمور.

أما فيما يخص العادات فقد أوردت النصوص الحجية كرم الضيافة الذي يعتبرونه من كرم الاخلاق، وأيضًا فهم أصحاب مذاهب ملتزمة وطاهرة وأطفالهم في غاية الأدب والذكاء والنجابة. ركز الرافعي على بعض العادات والتقاليد المرتبطة بالأمور الدينية للبقاع التي مر منها بطريقة مجردة، إذ أنه لا يتحدث عن العادات والتقاليد كممارسات يومية سواء بشكل فردي أو جماعي أو سواء فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية أو دور المرأة واللباس والأكل وهذا شيء متوقع من رحالة مركز على الأشياء التي لها قيمة روحية دينية ومعرفية لهذا غابت المعلومات المجتمعية وجاءت بشكل بانورامي[٣٨].

انفتحت بعض نصوص الرحلات أيضًا على مسألة الذهنيات والمعتقدات الشعبية، فالخيال الشعبي يتغذى دائمًا بخليط من الموروث الديني والاجتماعي، ومن ترسبات ظنية تراكمت عبر الزمن، ليفرز بعض أشكال التفكير والمعتقدات، من ذلك مثلا قضية التبرك بالماء والاغتسال به لأنه يداوي من الأمراض والعلل.

ثالثًا: تجليات البنية الاقتصادية للحجاز من خلال النصوص الرحلاتية خلال القرن الحادي عشر

تحفل نصوص الرحلات الحجية بمعلومات عامة حول الوضعية الاقتصادية دون الدخول في التفاصيل وهو ما جعل وضع صورة للأسس الاقتصادية للحجاز خلال الفترة المدروسة يشوبها عدم الوضوح، فمن الإشارات العامة نجد الحديث عن المقومات الزراعية للمدينة حين أجملها الرحالون في أن المدينة المنورة تتوفر على بساتين عامرة بأنواع متعددة من المزروعات حيث يستشف من مختلف الاشارات التي استقيناها من النصوص الرحلية أن اقتصاد الحجاز كان قائمًا أساسًا على النشاط الفلاحي كما نجد إشارات حول أبرزت أهمية الرواج التجاري، ذلك أن كمية ونوعية السلع المعروضة في أبواب وأسواق المدينة ومحلاتها مفتوحة ليلا ونهارًا طوال أشهر رجب وشعبان، ورمضان، ويضيئون المدينة ليلاً بمئات الألوف من القناديل، ولكن العيد الحقيقي للأهالي هو مجيء الحجاج المسلمين. ذلك أن الوصف أظهر تداخل الجانب الاجتماعي بالاقتصادي دون تمييز أو فصل بينهما.

وهنا يمكن أن نطرح التساؤل التالي لماذا غابت دقة وغزارة المعلومات حول الأوضاع عامة بالحجاز في عن الرحالين المغاربة. هل لأنهم اهتموا فقط بتدوين مسار الرحلة وطريقة أداء مناسك الحج؟ دون البحث في الأوضاع العامة لبلاد الحجاز؟ أم لأن الأمر يتعلق بفن التدوين وفعل الكتابة؟ كلها أسئلة تحتاج إلى مزيد من الدرس والتحليل وتفكيك خطابه لإبراز قيمته العلمية.

بالرجوع إلى متن الرحلة الحجازية نلاحظ أنها تخصص جانبا لوصف معالم الطريق وخصوصياتها وكذا للبيوت والآبار الفاصلة بين كل مرحلة ومرحلة وبعض القرى وكذا عن عادات موكب الحجيج في الأماكن المقدسة مثل مكان موقعة بدر وكيف يضيء الحجاج الشموع، كما يتحدث بإسهاب عن ينبع ويعتبرها أولى بلاد الحجاز.

ونلاحظ أن هذا الوصف يشمل الطبيعة السياسية، والاجتماعية والأنشطة الاقتصادية مثل عملية البيع الموسمية المرتبطة بمرور مواكب الحج، وكذا مكس المرور الذي يعد موردا اقتصاديا للشرفاء. ولم يقتصر الوصف على الأماكن المقدسة، بل امتد إلى وصف الطريق والقرى والآبار الممتدة على طوله وأيضًا المراكز الحضرية مثل الينبع التي كانت مزدهرة خلال هذه الفترة حيث لخص ابن المليح هذا المشهد بقوله: إن "الينبوع فيه كثرة النخيل والعمارة والأسواق"[٣٩]. تجدر الإشارة إلى أن هذا التطور استمر إلى ما بعد القرن السابع عشر وهو ما تخبرنا به رحلات لاحقة في مستهل القرن الثامن عشر منها على الخصوص رحلة ابن الطيب الفاسي الذي قال: "والينبع مدينة بالقرب من المدينة وورد عند ذكرها في الحديث قال ابن سعيد والينبع بها عيون وحفير وحصن وهي منازل بني الحسن رضي الله عنه وقال ابن حوقل وينبع حصن به نخيل وماء وزرع وبه وقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ... بقرب ينبع جبل رضوى المطل عليها من شرقيها ومن رضوى يحمل حجر المسن ساير الأقطار وبينه وبين المدينة سبع مراحل ورضوى جبل منيف ذو شعاب وأودية وبين ينبع مياه جارية ونخيل وزرع وبها جامعان معطلان من الخطبة وغالب أهلها على مذهب الزيدية، يستبيحون دماء الشافعية وإذ أنهم حي على خير العمل وبها الحدائق والخانات والأفران والبيوت وقد خربت ودثرت منها أماكن كثيرة جدا وتنصب به سوق عظيمة لبيع القماش وغيره من المأكولات والدقيق والفول والغنم وعلى مرحلة منه البندر الذي بساحل البحر الملح غربا وبه خان ... وجماعة الشريف يأخذون المكس من أهل المراكب المارة بهذا البندر وهي عادة لأمير ينبع يستعين بها على مصروف إمرته وعلى أمير الينبع عوائد ومصاريف لجماعة أمير الحاج بطريق المكارمة وحسن القيام بخدمة السلطنة والينبع من المناهل الكبار ويوجد فيه من المأكولات والأغنام والسمن والعسل والتمر والرطب الذي لا نظير له والدجاج والاوز والملوخية ... والليمون والفجل... وأنواع المخللات وغير ذلك ما لا يوجد"[٤٠] وأما موضع بدر به كثير العمارة والدشور والمياه والنخيل وفيه مسجد الغمامة.[٤١] لم يغفل الحديث عن الأنشطة الموسمية التي تحدث عنها هي مهنة الحلاقة حيث يكون الحاج مضطرا للتحلل قص شعره وبذلك كان الاقبال شديدًا على هؤلاء مما كان يشكل موردًا اقتصاديًا إضافيًا وموسميًا استفادة منه ساكنة المنطقة.

يقول الرافعي أيضًا: "أما الصفا والمروة فهما خارجتان عن البيت، وبينهما سوق عظيم"[٤٢] بينما اكتفى القادري بذكر السوق فقط. وقال بوجود سوق قرب المسجد الحرام يسمى بسوق الشام (الشامية). أم القرى أسواقها معمورة، وخاناتها بالمتاجر مغمورة طيبة الهواء عذبة الماء. غير أننا نلاحظ أن أغلب الراحلون لم يبينوا طبيعة هذه الأسواق هل هي دائمة أم موسمية مرتبطة بموسم الحج؟ فالواقع أنهم اغفلوا هذا الجانب ومرد ذلك في نظرنا إلى أنهم اكتفوا بنقل المشاهد الاقتصادية والاجتماعية دون التمحيص في طبيعتها أو تصنيفها.

زد على ذلك فقد كان القطاع التجاري منظما، بشكل جيد إذ تم توزيع الأسواق وتسميتها بناء على نوع المنتوج الذي تشتهر به أو مصادر البضائع المتداولة، فإلى جانب السوق المصري الذي تباع وتشترى فيه المنتجات المصرية وهناك السوق الشامي والسوق اليمنين والسوق العراقي... والسوق الهندي.

من مصادر الدخل وتنشيط الاقتصاد أيضًا قيام أهل الحجاز بكراء الرواحل لوفود الحجاج سواء الذاهبين إلى مكة أو إلى المدينة "فأسرعنا إلى كراء الجمال" يقول

الرافعي، مما يعني نشاط تجاري وحركة دؤوبة بين المكانين خلال هذه الفترة من السنة. فقد وجد في المدينة فئة سميت بالجمالين يعقدون صفقة الكراء مع الحجاج الذين يرمون السفر إلى مكة أو ينبع.

كما شكلت مكة والمناطق القريبة منها كمنى نقطة ارتكاز وتجميع للمواد حيث تنظم الأسواق، وتجدر الإشارة إلى أن الحجاج المغاربة كانوا كذلك يبيعون مواد يحملونها معهم إلى الحجاز ولم يقتصر الأمر على الركب المغربي، بل كذلك ساهم الركبين الشامي والمصري في تنشيط هذه الحركة التجارية[٤٣]، وهو ما يبرز اهتمام المجتمع المكي بالتجارة وتفضيلهم لها على باقي الأنشطة الاقتصادية الأخرى.

ما ينبغي التنبيه إليه هو وجود مبادلات تجارية من الطرفين بحيث أن ركب الحجيج كان يضم تجارًا يبيعون منتوجاتهم لأهل الحجاز إما لتغطية مصاريف الحج أو لنقص بعض المواد في هذه المناطق والتي يتم جلبها إما من القاهرة أو دمشق أو من المغرب الأقصى أو حتى من المدينة ليتم بيعها للأعراب في طريق العودة، يقول ابن المليح عند رجوعه: "نزلنا مقابر سيدنا شعيب فالتقينا هناك بشرذمة من العرب جاؤوا مرمدين (مسرعين) بالطعام والتمر واللبن والغنم فبعنا لهم وابتعنا منهم".[٤٤] وهو ما يوضح استفادة الطرفين من عملية البيع والشراء، فقد ورد لدى أغلب الرحلات أن عملية البيع كانت تتم مع أعراب القبائل، وأن أهم السلع المعروضة هي اللحم، والماء، والفواكه، والسمن، واللبن، والجبن، والتمر، والحبوب، والحبحب والعسل، والقِرب وملابس الإحرام والنعال والحطب[٤٥].

ما قيل عن مكة والمدينة يمكن أن يقال عن بعض المناطق الأخرى كجدة، ذات الميناء العظيم التي تخصص جزءا من مداخيل جُمركها لتأدية مُخصصات الشيوخ والمؤذنون والأئمة، ثم الينبع والعقبة... كمنافذ بحرية تُستجلب منها السلع التي توزع في مكة والمدينة. وقد ذكر القيسي قصبة المويلح على البحر ترسو به القوارب[٤٦] وقال في موضع آخر: "فهناك وجدنا أهل مصر في محلة عظيمة وجيش حملت من الأزواد ما تشتهيه الأنفس..."[٤٧].

علاوة على ذلك، لم يغفل الكاتب أن يشير إلى وجود أمكنة للترفيه والنزهة مثل ما قال عن وجود المقاهي عادية مبنية بالألواح الخشبية ومفروشة بحصير من عسف النخل حوالي أربعين بمكة تضم ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين. كما أن بعض الحجاج وفي المناطق الجافة والبعيدة عن الآبار.

خَاتِمَةٌ

قصارى القول، فقد أبرزت النصوص الرحلاتية الوضعية السكانية والتركيبة المجتمعية المكونة للحجاز وهي تركيبة متنوعة عرفت تراتبية واضحة على مستوى الطبقات والمهام. كما أبرزت أن بلاد الحجاز هي أرض التعايش وقبول التعدد وتقبل الآخر، فقد استقر بها غير الحجازيين وحملوا صفة مجاور. وانتشر التعليم بهذه الربوع حيث كان الهدف من الرحلة زيادة على تأدية مناسك الحج هو التعلم والنهل والأخذ عن علماء مكة والمدينة.

اهتمام أهل الحجاز بالنشاط الزراعي، وهو ما يستشف من قولهم البساتين الكثيرة التي تحيط بالمدينة تتراءى لكل قادم عليها، وكان التنصيص على أهم المنتجات لحقول المدينة ولاسيما التمور التي تعد من أهم المحاصيل، وما يفهم من رصد الرحالين عن كثرة المياه في بعض المناطق هو ازدهار الزراعة التي كانت تعتمد على مصادر مياه متنوعة أهمها الأمطار، ومياه الآبار والعيون مثل عين الزرقاء. وبالتالي كانت المساحة الزراعية وكمية الإنتاج في انسجام ما هذا المورد الحيوي كما رصدت أعين الرحالين بعض المناطق الجافة التي تقل أو ينعدم فيها الماء وبالتالي تقل فيها الزراعة والمغروسات بشكل عام.

يمكن أن نستشف أيضًا، اعتماد بلاد الحجاز على النشاط التجاري خاصة خلال فترة الحج حيث يتزود الحاج بما يلزمه من حاجيات. وحيث كان للتجارة نصيب كبير من اقتصاد المدينة النبوية وشمال الحجاز بسبب كثرة الزوار من شتى بقاع المعمورة ومن بينهم كثر من التجار، وكان طبيعيا أن تزدهر هذه التجارة في فترات الاستقرار وتتأثر في فترات الاضطرابات والفتن. بيد أن الملاحظ هو غياب أو ضعف الحديث عن حجم هذه التجارة ومدى تأثيرها على الاقتصاد المحلي بشكل عام سواء خلال فترة الحج أو بعدها. فالمستفاد هو تأثير الزوار والحجاج على النشاط الاقتصادي خلال فترة الحج لهذا فدراسة التطور الاقتصادي وسيرورته تقتضي الاتجاه نحو رحلات أخرى في فترات لاحقة لوضع تصور عام ومدقق عن اقتصاد الحجاز.

لم يستفض الرحالون في رصد الحرف والصناعات التي عرفها الحجاز الحرف والصناعات. فالأكيد ان هناك مهن ارتبطت بغير موسم الحج كانت موردا اقتصاديا لمجتمع الحجاز لكن تم اغفالها ولم تتم الاشارة إليها، إذ أوضح الرحالون الذين اعتمدناهم في هذه الدراسة كيف ارتبط الحج بتنوع وازدهار النشاط الاقتصادي، بسبب النفقات التي يتطلبها أداء شعيرة الحج وبالمقابل ظهور خدمات موسمية تسهيلاً للزيارة، لكن ما ذهب إليه جلبي هو أن أهل المدينة لا يفضلون ممارسة المهن والحرف ويعتمدون على العطايا (الصرة) المقدمة لهم من طرف العثمانيين وأمراء الركب المختلفة.

انفردت الرحلات بمعلومات فريدة لأنها اعتمدت على المشاهدة والاحتكاك كما ساهمت في تعميق التكوين الروحي والخلقي للمسافر لكون أهدافها دينية وداخل أرض الإسلام وبالتالي فهذه الرحلات قد نقلت صورة حية عن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة، يمكن أن تساعد الباحثين من تخصصات مختلفة على كتابة تاريخ المنطقة. لأن المؤرخ بات يعتمد على كل ما يمكن أن يساعده من معلومات ووثائق والانفتاح على مختلف التخصصات والأجناس الأدبية في تقديم معرفة تاريخية دقيقة وعلمية وبعيدًا عن التفسيرات اللامنطقية فالتاريخ هو منذور لإعادة الكتابة بسبب ضغط أسئلة يلقيها الحاضر على الماضي.

الملاحق

الصورة الأولى من مخطوط نسمة الآس[٤٨]

الإحالات المرجعية:

(١) القيسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م**، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد الفاسي، (فاس ١٩٦٨)

(٢) يشير محمد داوود وكذا مصطفى الغاشي أن مخطوط هذه الرحلة موجود بالخزانة الداودية بتطوان تحت رقم ١٣٤.

(٣) موجودة في عدة نسخ مخطوطة، منها مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية تحت رقم ٣٢١٦-ك – ومخطوط خزانة حسنية رقم ٨٧٨٧.

(٤) ابراهيم القادري بوتشيش، "**العادات والتقاليد في المدينة المنورة من خلال الرحلة العياشية** (القرن ١١ هـ/ ١٧ م)"، **مجلة التاريخ العربي**، العدد ٥٢، ربيع ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، ص٥٧-٩٤ ، ص ٥٧.

(٥) سعيد بن سعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة**، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس (الرباط ١٩٩٥).

(٦) عبد الرحيم مؤدن، "رحلة أدبية أم أدبية الرحلة؟" **مجلة فكر ونقد** عدد ٢٠، متاح على موقع المجلة الرسمي على شبكة الإنترنت من خلال الرابط http://www.aljabriabed.net/n20_09mudan.htm تاريخ الاطلاع ١٢-١٢-٢٠١٧

(٧) حافظ السلاطين الدولة العلوية على علاقات متميزة مع أشراف الحجاز وكانوا يرسلون لهم أيضًا الرسائل والهدايا منها مثلا الرسالة التي أرسلها المولى إسماعيل إلى الشريف سعد بن يزيد بن محسن الذي تولى الحكم سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م ينظر، محمد أمين، "رسالة من سلطان المغرب اسماعيل بن علي الشريف الحسني إلى الشيف سعد بن زيد سلطان الحرمين الشريفين ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م"، **الدارة**، العدد ٣ رجب ١٤٢٧ السنة ٣٢. صص ١٠٧-١٤٢.

(٨) سهيل بن محمد صابان، "**جوانب من الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية**"، متاح على موقع الألوكة من خلال الرابط: http://www.alukah.net/culture/0/26860/#ixzz535SJ7WUB تاريخ الاطلاع١-١-١٨-٢٠١٨

(٩) عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة ورحلة**، مراجعة عباس صالح طاشنكدي، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٥ ص ١٧٧.

(١٠) في الأصل هو رسالة جامعية نوقشت في جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط سنة ١٩٨٤)، طبعت بالرباط، منشورات عكاظ سنة ١٩٩١ م.

(١١) عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة ورحلة**، م س، ص١٧٧.

(١٢) تم تحقيق ونشر والتعليق على هذه الرحلة من طرف العلامة محمد الفاسي، في كتاب يحمل نفس العنوان من منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل ضمن سلسلة رحلات حجازية، (سنة ١٩٦٨) كما سبقت الإشارة إلى ذلك..

(١٣) سلطان مغربي من الدولة السعدية حكم مراكش بين (١٠٤٠ هـ - ١٠٤٥هـ/ ١٦٣١ - ١٦٣٦م). تعود قصر فترة حكمه إلى الاضطرابات السياسية التي عرفها المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي سنة ١٦٢٦م حيث ظهرت إمارات معارضة للحكم السعدي الذي انحصر في مدينة مراكش وهو ما مهد لقيام الدولة العلوية سنة ١٦٦٦م. يُنظر: الفشتالي (عبد العزيز): **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، (الرباط، ١٩٧٢)؛ محمد القبلي (اشراف)، **تاريخ المغرب تركيب وتحيين**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ، الرباط ٢٠١١.

(١٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، **أنس الساري...**، م س ص ٧٨.

(١٥) أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، **أنس...** م س، ص ٧٨.

(١٦) حول أهمية الركب المغربي ومكوناته والطرق التي كان يسلكها وأماكن الميقات يُنظر كتاب المنوني محمد، **من حديث الركب المغربي**، تطوان مطبعة المخزن ١٩٥٣

(١٧) على الرابط http://rihlamaroc.blogspot.com/2012/01/blog-post_7048.html تاريخ الاطلاع ٢١-١١-٢٠١٧

(١٨) سجلت إحدى الطالبات بكلية الآداب تطوان أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان: **"المعارج المرقية في الرحلة المشرقية لابي عبد الله محمد بن علي الرافعي التطواني"** دراسة وتحقيق تحت إشراف الأستاذ مصطفى الغاشي. وبذلك ستخرج هذه الرحلة إلى حيز الوجود ويتمكن القراء من الاطلاع عليها، بعد أن ظلت لقرون مخطوطة وحبيسة الرفوف.

(١٩) تحدث عنها وعن صاحبها مؤرخ تطوان الأستاذ داوود في كتابه الموسوم **بتاريخ تطوان**، الجزء الأول من الصفحة ٣٩١ إلى٣٩٦.

(٢٠) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، الجزء الأول، المطبعة المهدية ١٩٩٥، ص٣٩١.

(٢١) نفسه، ورد أيضًا عند مصطفى عبد الله الغاشي، **"صورة الشرق من خلال المعارج المرقية في الرحلة المشرقية للرافعي التطواني ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م"**، **الدارة**، العدد ١ من السنة ٢٥، ١٤٢٠هـ، ص١٨١-٢٠٠. ص١٨٤.

(٢٢) كانت مكة عاصمة الحجاز حتى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م تابعة لبغداد العباسية، ولما استولى الفاطميون على مصر في امتداداتهم على أقاليم عديدة بتفاقم قوتهم السياسية على حساب الرقعة العباسية. كان الأشراف الحسينيين يستقرون بمكة. وأولهم جعفر بن محمد الحسين بن محمد الثائر. وينقسم هؤلاء الأشراف إلى أربع طبقات أسرية هي: ١-الموسويون (بنو موسى) ٢- السليمانيون (بنو سليمان) ٣- الهواشم (بنو هاشم) حكمت هذه الطبقات حوالي ٢٤٠ سنة. ٤-القتاديون (بنو قتادة) حكموا مكة لفترة طويلة امتدت من ٥٩٨هـ إلى ١٢٠٩هـ/ ١٢٠٩م إلى ١٩٢٥م أي ٧١٦ سنة.

حتى عندما خضعت مصر لسليم الأول ١٥١٧م سارع أشراف مكة للاعتراف به سلطانا عثمانيا على البلاد العربية، لهذا بقي الحجاز تحت السيطرة العثمانية على غاية اندلاع الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م. وقد سار حكم الأشراف لمكة جنبا لجنب مع السلطة الروحية القديمة، واعتمد البلاط العثماني عليهم كثيرا، لاسيما منذ بداية القرن السادس عشر، إذ استطاع العثمانيون أن يوظفوا هذا النظام العربي القديم لصالحهم وفي أهم بقعة إسلامية وبقيت العلاقة بين الأشراف والعثمانيين ثابتة في تحالفها مادام الأشراف لم يثيروا أي حقوق سلطوية عربية لهم بمقتضى النظرة الشرعية القديمة للسلطان في الاسلام، ولكن كان التطاحن والصراع الداخلي على أشده عند الأشراف وبنيتهم كطبقة عربية

قديمة. أدى في كثير من الأحيان إلى تطاحنات ضارية مثل ما حدث سنة ١٦٣١م بعد انقسام الأشراف على أنفسهم بعد وفاة الشريف سعود بن إدريس وظهر شرفاء بني عبد المطلب وشرفاء بن إدريس. يُنظر، سيار الجميل، **تكوين العرب الحديث**، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص١٤٧-١٤٨.

(٢٣) عواطف بنت محمد يوسف نواب، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دراسة تحليلية نقدية مقارنة**، سلسة الرسائل الجامعية، (دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) ص ٤٠١-٤٠٢.

(٢٤) مفردها "أغا"، وهو مصطلح تركي يشير إلى معنى الرئيس أو قائد الجيش، لكن المعنى المقصود هنا هو العبيد الخصيان الذين نذرهم السلطان العثماني لخدمة الحرم الشريف، وكان بعض المسلمين يوقفونهم كذلك على الخدمة حيث كانوا يقومون بخدمة وحراسة المسجد والحجرة الشريفة بالمدينة المنورة. ورد عند ابراهيم القادري بوتشيش، "**العادات** ..." م، س، هامش ١٠٥، ص ٩٠.

(٢٥) القادري، **نسمة التأس**، ص ٧٥.

(٢٦) ابن المليح، **انس الساري**، م س ص ١٢٦.

(٢٧) ابن ابي محلي، **الاصليت الخريت**، م.س، ص١٠٦.

(٢٨) نذكر على الخصوص **رحلة ناصر الدرعي**. **والرحلة الحجازية** لابن الطيب الفاسي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر.

(٢٩) الرافعي، **المعارج**، م س ص ١٦٣؛ القادري، **نسمة التأس**، ص، ٨١-٨٢.

(٣٠) القادري، **نسمة التأس**،

(٣١) الرافعي، **المعارج**، م س، ص ١٣٣.

(٣٢) ابن المليح، **انس الساري...** م س، ص ٩٦.

(٣٣) نفسه، ص ١٢٥.

(٣٤)نفسه.

(٣٥) الرافعي، **المعارج...**، م س، ص ٢٠٢.

(٣٦) ابن ابي محلي، **الاصليت...**، م س، ص ١٢٣.

(٣٧) ابن المليح، **انس الساري...**، م س، ص٩٦.

(٣٨) مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في رسم الصورة**، (مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٥) ص، ٢٨٥.

(٣٩) ابن المليح، **انس الساري**، م س، ص ٧٢.

(٤٠) ابن الطيب الفاسي، **الرحلة الحجازية**، م س، ص ١٣٥.

(٤١) ابن المليح، **انس الساري**، م س، ص ٧٢.

(٤٢) ورد عند عبد الهادي التازي، **مكة ...** م سابق ص ٢٤٦.

(٤٣) عواطف بنت محمد يوسف نواب، **م س**، ص ٢٤٩.

(٤٤) القيسي، **أنس الساري**، ص ١٢٧.

(٤٥) نفسه.

(٤٦) نفسه، ص ٧١.

(٤٧) نفسه، ص ١٢٧.

(٤٨) المخطوط موجود في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط تحت رقم ٣٢١٦-ك، كما أن جزءًا منه متاح للتحميل بعدة مواقع الكترونية.